حكايات نبوية

٨

ولكنّه لم يعمل خيراً قط !!

الدكتور
محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

وجاءَ شَهرُ التَّوبةِ.. شهرُ رَمضَان

عَجيبٌ سِحرُ هذا الشَّهرِ المُبَارَكِ... ففيهِ يَنطَلِقُ جميعُ النَّاسِ إلىٰ بيوتاتِ اللهِ.. ويعكفُ - حتَّى المُذْنبُونَ و.. - على تِلاوَةِ كِتَابِ اللهِ تعالَىٰ.. ويتزاورُ النَّاسُ فيما بينهُم ويَتَراحَمُونَ.. وكأنَّ لهَذا الشَّهرِ طَبيعةً خاصَّةً.. لا يحملُهَا أيّ شهرٍ سِواهِ..

بهذهِ الكَلماتِ ابتدأتْ مديرةُ المَعهدِ كلمتَها وهيَ تُرَحِّبُ بالحُضُورِ..

ثمَّ تقدَّمتْ طالِبَةٌ صغيرةُ السِّنِّ.. وجلست على كرسيٍّ مجاورٍ للكُرسيِّ الذي تجلسُ عليهِ المُديرةُ ، ثمّ رتَّلتِ الفُرقَانَ ، وذرفَتِ الدُّموعَ من

العُيونِ.. فَصوتُها يسحرُ القُلوبَ.. إضافةً إلى صِغرِ جسمها ونحولهِ.. ذلكَ لأنَّ الكَبيرَ عندما يسمعُ أمثالَ هذهِ التِّلاواتِ تنطلقُ من حناجِرِ الصِّغارِ فإنَّهُ يبكي على ما فرَّطَ في أيَّامِ الشَّباب..

أجلْ!

ففِي الآياتِ التي تَلَتْهَا الطِّفلةُ الجَميلةُ وَصْفٌ رائِعٌ لِعِبادِ الرَّحْمنِ:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ

يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّو۟ا بِٱللَّغْوِ مَرُّو۟ا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُو۟ا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّو۟ا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُو۟ا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴿٧٥﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾.

وقالَتِ المُديرةُ: ما أجملَ أوصافَ عِبادِ الرَّحْمنِ.. ونسألُ اللهَ تَعالى أنْ يَجْعَلَنا منهُم، إكرامًا للحَبيبِ محمَّد ﷺ.

وردَّدتِ الحَاضِراتُ: آمين.. آمين.. يا ربَّ العَالَمين.

يا لَها من وَحشِيَّة!!

وبعدَ ذلكَ قَدَّمتِ المُديرةُ الطَّالبةَ (لَطِيفة) وذلكَ لتُلقِي ما عندَها من الحِكَاياتِ النّبويَّة...

وبعدَ التَّحيَّةِ والسَّلامِ ، وقولها: الحَمْد للهِ رَبِّ العالَمين ، قالتْ (لَطيْفة):

أيَّتُها الأَخواتُ المُؤمِناتُ!

حِكَايتنَا اليومَ فِيهَا دُروسٌ وَعِبَرٌ ، حيثُ تُركِّزُ على أهمِّ النّقاطِ التَّاليةِ:

- لا أحدَ يملكُ إغلاقَ بابِ التَّوبةِ.

- مُصَاحَبةُ الصَّالحين فيها من الفَوائِدِ الشَّيءُ الكَثِير.

- لَيستِ المسألةُ بالكَثرةِ ، إنَّما هُوَ الإخلاصُ للهِ تَعالى.

ـ قَليلٌ مِنْ العِلْمِ أَعْظَمُ مِن كثيرٍ مِنَ العِبادَةِ التي يُرافِقُها الجَهْلُ.

الحكايةُ هذه هيَ من معينِ السُّنَّةِ النَّبويَّةِ الشَّريفةِ... ، وما أجملَ حكَاياتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ..

وملخَّصُ الحكَايَةِ كمَا يلي:

كانَ فِي قَديمِ الزَّمانِ شابٌّ قَوِيٌّ ، لكنَّهُ شرِّيرٌ ، فهو عاشِقٌ لسَفْكِ الدِّماءِ.. وقَتْلِ الأبرياءِ...

لا يهدأُ لَهُ بالٌ... و يَقَرُّ لهُ قَرارٌ ، ولا تغمضُ له عَيْنٌ إلاّ إذا قَامَ بالاعْتِدَاءِ والقَتْلِ والإجْرامِ..

ولمَّا بلَغَ عَددُ ضحايَاهُ تسعةً وتسعينَ إنساناً.. أصبحَ النَّاسُ يخافُونَ منه.. وأصبحَ أشهرَ من نارٍ على عَلمٍ!.

وما إنْ يمرُّ في شارِعٍ مِنَ الشَّوارِعِ حتَّى يُشارَ إليهِ بِصَوْتٍ مُنخفضٍ كأنَّهُ الهَمسُ: هذا هُوَ الوحشُ الكَاسِرُ.. هذَا هو المُجْرِمُ.. هذا مَنْ

لا يَعرفُ الخَيرُ إلى قَلْبِهِ سَبيلاً.. هذا قاتِلُ الـ (٩٩) رَجُلاً!!

وصحَا ضميرُ الرَّجلِ ولكِنْ!!

وذاتَ لَيلَةٍ.. وبينَما كانَ الرَّجلُ الشِّرِّيرُ مُسْتَلقياً على أرضِ الحَدِيْقَةِ العامَّةِ... تحتَ ظِلالِ أشجارِها الكَبِيرَةِ ، إذا بهِ يَرى طِفْلاً تبدُو عليهِ عَلاماتُ الحُزنِ والشَّقَاءِ..

فناداهُ وسألَهُ: أنتَ ابنُ مَنْ يا هذا؟

فأجابَهُ الطِّفلُ: أنا ابن (أبي سَعيدٍ).. الذي قتلَهُ الرَّجلُ الشِّريرُ... الذي لا يخافُ الله.. ويَعْتدي على عِبَادِ الله!!

وتسلَّلتْ كلماتُ الطِّفلِ إلى قَلْبِهِ وعقْلِهِ.. ثُمَّ فَاضَتْ دُمُوعُ عَيْنَيْهِ ، وتلجْلَجتِ الكَلماتُ بينَ

شَفتيهِ: حَقّاً ، ماذا جَنَتْهُ يَداي؟ كمْ فَرّقتُ بينَ أَبٍ وَأَوْلاَدِهِ؟

كَمْ ارتَكَبْتُ من آثامٍ في تمزيقِ أُسَرٍ؟ كمْ... وكمْ... يا ويلي من المُثُولِ أمامَ رَبِّي سُبحَانَهُ..! ماذا أُقَدِّمُ من حُجَجٍ..؟!

ووضعَ الرَّجلُ الشِّريرُ رأسَهُ بينَ يديهِ.. وَبَكَىٰ بُكاءً لا مثيلَ لَهُ ، وكأنَّهُ يبكي للمرّةِ الأُولى في حياتِهِ..!

واقتربَ مِنهُ رجلٌ مُسِنٌّ تبدُو عليهِ أماراتُ الوقارِ... فمسحَ على رأسِهِ..

ولمَّا رفَعَ رَأسَهُ... قالَ الرَّجُلُ بتَعَجُّبٍ: أَنْتَ..!! ماذا جَرى لكَ.. حتَّى تبكِي؟!

فقالَ الشرِّيْرُ: هل لي مَن تَوبةٍ.. ليغفرَ الله لِي جَرائِمي الكَثيرةَ؟

وازدادَتْ حيرةُ الرَّجلِ: أنَ تقولُ بالتَّوبةِ والرَّحمة و..؟

قال الشرِّيرُ: نَعم ... أنا ، أوَ لَستُ بَشَراً ككلِّ البَشرِ؟!

فقالَ الرَّجُلُ: أعلمُ أنَّ هُناكَ رَجُلاً عابداً زاهداً.. مُنقَطِعاً عن الدُّنيا يَعيشُ في صَومعةٍ مَوجودةٍ في بَطْنِ الجبلِ الغَربيِّ من البلدَةِ..

عابدٌ.. لكنَّهُ جاهلٌ!!

تابعتْ (لَطيفَةُ) الحكايةَ.. قَائِلَةً:

وَبِسُرْعَةٍ عجيبةٍ.. انطلَقَ الرَّجلُ الشِّريرُ نحوَ الجَبلِ.. ولمَّا رأىٰ الصَّومعةَ تقدَّم منهَا.. وصَاحَ: يا سَيِّدي الرَّاهِبَ.. أريدكَ بِمَوضوعٍ مهمٍّ وعَاجلٍ..

وأَطَلَّ الرَّاهبُ من كُوّةِ الصَّومعةِ.. ثُمَّ أَشارَ إلى الرَّجُلِ الشِّريرِ أَنْ ادخلْ إليَّ..

ولمَّا جلسَ الرَّجلُ بينَ يدَي الرَّاهب.. قَصَّ عليهِ قصَّةَ إجرامِهِ بالأَبرياءِ.. وأَنَّهُ الآنَ يُريدُ التَّوبةَ إلى الله تعالى..

وعندَها انتفضَ الرَّاهبُ انتفَاضَةَ العُصفورِ إذا بَلَّلهُ ماءُ المطَرِ.. ثمَّ صاحَ: اخرجْ أيُّهَا الشِّرّيرُ.. فأنتَ مُجرمٌ مِنَ الطِّرازِ الأوَّلِ.. ولا تَوبةَ لكَ أبداً...!

وكيفَ يغفرُ اللهُ لكَ وقد قتلتَ هذا العَددَ الكَبِيْرَ؟!.

واحْمَرَّتْ عينَا الرَّجُلِ الشِّرير.. وبدُونِ شُعورٍ مدّ يدَهُ إلى جنبهِ الأَيْمَنِ، فحملَ حربتَهُ... وانقَضَّ على الرَّاهِبِ فطعنَهُ وهو يَقُولُ: وها أنتَ أصبحتَ العددَ المِئةَ..!!

عالمٌ يفهم جوهرَ الأديانِ..

وعادَ الرَّجُلُ الشِّريرُ إلى قريتهِ.. وقالَ أَمامَ النّاسِ: لقد كملَ العددُ إلى المئةِ.. وذلكَ بِقَتْلِ الرَّاهِبِ الذي أغلقَ بابَ التَّوبةِ... أريدُ أَنْ تدلُّونِي على رَجُلٍ عالمٍ..

فدَلُّوهُ على أعلمِ أهلِ تلكُمُ المَحلَّة ، فانطَلَقَ إليه وَحكى لَهُ حكايتَهُ.. وأنَّهُ يُريدُ التَّوبةَ.. فهلْ لهُ من تَوبةٍ؟

ونَظَر العالمُ إلى وجْهِ الرَّجلِ.. فَلَمَحَ أَمَاراتِ النَّدمِ.. والعَزمِ ، والتَّصميمِ على عَدَمِ الرُّجُوعِ إلى الجَرائِمِ.. رَأَى دموعَ عينيهِ تَسيلُ على وَجْنَتيهِ... فابتسمَ في وجهِهِ وقالَ:

يا هَذا! بابُ التَّوبةِ مفتوحٌ.. ولا يملكُ إغلاقَهُ أَحدٌ أبداً.. ولو أنّ ذنوبكَ ملأتِ الدُّنيا وما فِيهَا..

ثُمَّ أَتيتَ نادِماً.. باكياً.. صادِقاً على ذلكَ.. فإنَّ اللهَ يتقبّلُ التَّوبةَ عن عبادِهِ.

وقَفزَ الرَّجلُ إلى جوارِ العَالِمِ، وأخذَ يقبِّلُ رأسَهُ ويقولُ: جزاكَ اللهُ عنِّي كُلَّ خير.. ، لقد أَعدْتَ الأملَ إلى نَفسِي، وفتحتَ أَمامِي بابَ الأَمَلِ والرَّجاءِ.. فعَهداً أن لا أعودَ إلى ما كانَ منِّي في المَاضِي..؟

قالَ العالمُ: نَصيحَتي إليكَ أن تنطَلِقَ إلى قريةِ كَذا.. فتلزمَ أَهلَ الصَّلاحِ فيها ولا تُفارِقهُم..

ولكنَّهُ المَوت..!!

وخَرَجَ الرَّجلُ التَّائبُ من عندِ العالمِ، وتَوجَّه باتِّجاهِ القَريةِ..

لكنْ وَفِي وسطِ الطَّريقِ، أسلمَ رُوحَهُ إلى بَارِئِهَا سُبحانَهُ.. فكيفَ كانَ حالُهُ أَهُوَ معَ

الصَّالِحين ولمْ يعمل عَملاً صالحاً بَعد ، أمْ هُوَ مَعَ المُجرِمينَ... وقد تَابَ إلى اللهِ تَعالَى؟

«فقالتْ ملائكةُ الرَّحمةِ: جاءَ تَائباً مُقبلاً بقَلْبِهِ إلى اللهِ تَعالىٰ ، وقالتْ ملائكةُ العَذابِ: إنَّهُ لم يعمل خَيراً قَطُّ!».

إلى جنَّاتِ الخُلدِ...!!

تابَعتْ (لَطيفةُ) الحِكَايَةَ.. قائِلَةً:

وأرسلَ اللهُ إلى المَلائكةِ مَلَكاً يحكمُ بينهُمْ.. ، فَقالَ لَهُمْ: قِيسُوا ما بينَ الأرضينِ ، فإلى أيّتُهمَا كانَ أَدْنَىٰ فهوَ لهُ.

فقَاسُوا ، فوجدوهُ إلى أَرضِ الخَيرِ أَدْنَى ، فَقَبَضَتْهُ ملائكةُ الرَّحمةِ..

وَبدَّلَ اللهُ سَيِّئاتهِ حَسناتٍ ، وتابَ عليهِ تَوبةً عَظِيمةً..

ثُمَّ تَوَجَّهت (لَطيفة) إلى الحَاضِراتِ وَقالتْ:

هَلْ رأيتُنَّ كَرماً كَكَرَمِ اللهِ؟ لقدْ أدخَلَ قاتِلَ المئةِ جنانَ الخُلْدِ.. بمجرَّدِ أَنَّهُ صدقَ في توبتهِ.. وعزَمَ على أن لا يعودَ إلى الجرائمِ..

أَجَلْ!

إِنَّهُ بابُ التَّوبةِ.. الذي لا يملكُ أحدٌ إغلاقَهُ.. والعاقلُ من استفادَ من أَحْدَاثِ الدُّنيا.. لِيَتُوبَ إلى اللهِ وَيستغفرهُ... ويُقلعَ عن ذُنوبِهِ وآثامِهِ قبلَ أن يَأتي اليَوْمُ الذي قال اللهُ عَنْهُ:

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾.

وآخرُ دَعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمِينَ